الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام مخالفين في ذلك هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلب تعدد الحروف، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للحروف؟.

إلاَّ أن هذه ثغرة لا يمكن سدها، وثلمة يصعب جبرها، وإلاَّ فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة أحرف نزل عليها القرآن دون أن يبقوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرر بقوله وفعله، أنه لا يجوز لأحد أيا كان أن يمنع أحداً أياً كان من القراءة بحرف من السبعة أياً كان. فقد صوب قراءة كل من المختلفين وقال لكل: «هكذا أنزلت» وضرب في صدر أُبيّ بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة.

وقصارى القول، أننا نربأ بأصحاب الرسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا، فضلاً عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها.

وحاش لعثمان رضي الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعمه، وكيف ينسب إليه هذا؟

والمعروف أنه نسخ المصاحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه قبل أن يدب النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن. فكانت تلك الصحف محتملة للأحرف السبعة جميعاً، ضرورة أنه لم يحدث وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد في رأيهم، ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة أحرف ولو كان ذلك لنقل إلينا متواتراً، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله.

ثم كيف يفعل عثمان رضي الله عنه ذلك وهو الذي عرف أن علاج الرسول لمثل هذا النوع الذي دب في زمانه، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة لا بمنعهم عنها كلاً ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟

أي كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً، ويكادون يتفقون - رغم خلافهم هذا - على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين.

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان رضي الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تقدر بقدرها، وهذه الستة أحرف لم تنسخ لا تلاوة ولا حكماً حتى تذهب بجرة قلم كذلك، ثم يخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم[1].

* * * *

(١) مناهل العرفان ص ١٦٩ - ١٧٠.

المبحث الرابع

القـراءات القـرآنية

أولاً ـ تعريف القراءات :

معناها اللغـوي : القراءات جمع قراءة، وهي مصدر من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، واسم الفاعل منه قارئ وجمعه قراء.

ويطلق لفظ قرأ ويراد منه عدة معان : فإذا قلت : قرأت القرآن معناه لفظت به مجموعاً أي ألقيته، وأقرأت حاجتك إذا دنت، وقرأت الشيء قرآناً إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

معناها الاصطلاحي :(قال الزركشي): القراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها[1].

(أما ابن الجزري فعرفها): (بأنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة)[2].

(وهذا التعريف اعتمده كثير من المؤلفين في علم القراءات.

وهناك من عـرف القـراءات [بأنهـا مـذهب يذهب إليـه المقـرئ] وهو وإن كـان مقصـوده ما ذهب إليه العلماء أن مبنى ما ذهب إليه القارئ هو الوحي والسماع إلاّ أن المستشرقين قد جعلوا من مثل هذا التعريف مأربا خبيثا للصيد في الماء العكر، إذ رأوا أن اختلاف القراءات مبناه اختلاف القراء وفق هواهم ومعتقداتهم وراحوا يقيسون اختلاف الأناجيل على اختلاف الروايات في القراءات[3].

ومع كل الأسف فقد وجدنا ممن شايعهم من ذهب إلى مثل أقوالهم. ولعلّ في تعريف الزركشي ما أجلى هذه الحقيقة وما يبعد هذه الشبهة إذ قال عن القراءات

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨.
(٢) ابن الجزري هو الحافظ أبو الخير الدمشقي توفي سنة ٨٣٣هـ.
(٣) انظر المذاهب الإسلامية لجولد زيهر، ص ٥٣.

واختلافها : إنها اختلاف ألفاظ الوحي ... فهذا التعريف يلقي الضوء على أن مبنى القراءات الوحي النازل من السماء، وقد تبعه علماء القراءات - قديماً وحديثاً - في تجلية هذه الحقيقة، فجاءوا بتعريفات واضحة وناصعة، فعرّفوا القراءات [بأنها النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ].

ومثل هذا التعريف [تلاوة ألفاظ القرآن الكريم كما تلاها المصطفى ﷺ أو كما علمها أو سمعها منه أصحابه وأقرهم عليها][1]، وكلها تعريفات قريبة مما ذكره الزركشي، فاختلاف ألفاظ الوحي هي مثل النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ ومثل تلاوة القرآن كما تلاها النبي ﷺ وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[2].

نشأة القراءات :

هذا العنوان الذي يستعمله كثير من المؤلفين عن حسن قصد، ويؤكده المستشرقون لغرض في نفوسهم، فيه نظر : ذلك أن القراءات المتواترة قرآن لا شك فيه، فقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ و ﴿ ملك يوم الدين ﴾ بالألف وبدونها، و ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ و ﴿ اهدنا السراط المستقيم ﴾، بسينها وصادها، وكل قراءة قرآنية متواترة، كل ذلك قرآن وهو قديم فلا يقال لقراءة منه نشأت لأن ذلك يشعر بالحداثة لبعضها في وقت من الأوقات.

لذا أرى في استعمال المؤلفين المخلصين هذا العنوان تجاوزاً - إن صحّ التعبير - وأرى في استعمال المستشرقين له مقصدا خبيثا، ونحن قد رأينا فيما أومأنا إليه سابقا من تعريف للقراءات بأنها اختلاف ألفاظ الوحي، مما يشير إلى أن القراءة قرآن لا تنفك قرآنيتها عنه ما دامت قد تواترت، فلا يقال لها ناشئة إلاّ إذا قيل للقرآن ناشئا، وليس الأمر كذلك فقد نزل الوحي بالقراءة فيما ورد في بعض ألفاظه أكثر من قراءة، بل حين بدأ نزول الوحي بدأها بأول كلمة في أول سورة نزلت هي (اقرأ) ففيها قراءتان متواتران :

الأولى : هي قراءة الجمهور بهمزة ساكنة.

(١) إتحاف الفضلاء، ص ٥.
(٢) سورة النجم